كتاب المناظرات

الباب الأول: في مناظرة الله عز وجل مع العبيد.

الباب الثاني: في مناظرة النبي ﷺ مع النصارى.

الباب الثالث: في مناظرة الروح.

الباب الرابع: في مناظرة إبليس – لعنه الله.

الباب الخامس: في مناظرة أهل القبور مع أهل القصور.

الباب السادس: في مناظرة الأغنياء مع الفقراء، ومناظرة الفقراء مع الأغنياء.

الباب السابع: في مناظرة العافية مع النعمة.

الباب الثامن: في مناظرة السخاء والبخل.

الباب التاسع: في مناظرة الدولة مع العقل.

الباب الأول

مناظرة الله عز وجل مع العبيد

يروى أن الله تعالى يخاطب عبده ويقول: «ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أظننت أنك ملاقيّ فيقول: لا، فيقول: إني أنساك كما نسيتني»، وقال النبي ﷺ: «إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى تقع عليه الهَيبة فيقول: أي عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى العبد في نفسه أنه قد هلك، فيقول: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وقد غفرتها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه».

وقال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء: ٥٣] ، يا موسى ابن عمران قل لعبادي اعملوا ما شئتم، فإن مع اليوم غدا، يا عبادي أنتم رفعتم أنسابكم ووضعتم نسبي، فاليوم أضع أنسابكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟ وقال: يا موسى أشكو إليك جفاء عبادي، استقرضتهم فلم يقرضوني، ودعوتهم فلم يجيبوني، وأعطيتهم فلم يشكروني، يا ابن آدم خلقتك لتربح عليّ ولم أخلقك لأربح عليك، فاتخذني بدلا من كل شيء، يا ابن آدم لو يعلم الناس منك ما أعلم لنبذوك، ولكن سأغفر لك ما لم تشرك بي.

الباب الثاني

في مناظرة النبي ﷺ مع النصارى

جاء وفد نجران إلى النبي ﷺ وقالوا: إذا لم يكن عيسى ولد اللّه تعالى فمن أبوه؟ فقال النبي ﷺ «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟»، قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء، يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئا» قالوا: لا، قال: «فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل، ولا يشرب ولا يموت» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته، وغذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويحدث» قالوا: بلى، قال: «فكيف يكون ربنا؟»، فسكتوا وانقطعوا.

الباب الثالث

في مناظرة الروح

قال ابن عباس - رضي اللّه عنهما -: لم تزل الخصومة دائمة إلى يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فيقول الجسد: أي رب خلقتني كالجُبَّة، ولم تجعل لي يدا أبطش بها، ولا رجلا أمشي بها، ولا عينا أبصر بها، حتى دخل هذا عليّ كالشهاب، فبه نطق لساني، وسمعت أذني، وأبصرت عيني، وبطشت يدي، فأحل عليه العذاب، ونجني من النار، فتقول الروح: يا رب خلقتني كالريح، ولم تجعل لي يدا ولا رجلا وعينا وسمعا، فلم أتحرك إلا بحركته، ولم أسكن إلا بسكونه، فما ذنبي وما جرمي؟ يا رب أحل عليه العذاب ونجنيَ، قال: فيضرب اللّه تعالى لهما مثلا كالأعمى والمقعد يصطحبان، أما الأعمى فلا يبصر، والمقعد لا يقدر على المشي، فبلغا إلى بستان فجلسا وتشاورا وطلبا حيلة، فقال الأعمى: أنا لا أبصر،

فمر أنت وائت بالعنب، وقال المقعد: بل مر أنت، فإني لا أقدر على المشي، ثم تناظرا وتناصفا، وقالا: هذا أمر لا يتم بأمر دون الآخر، يا أعمى، قم أنت فارفعني حتى أتسلق الحائط وأقطف العنب، فلما توافقا قطعا العنب وأكلاه، وقال المقعد: لولا أنت يا أعمى لما أكلت، وقال الأعمى: لولا أنت لما أكلت، فكل واحد محتاج إلى صاحبه، لولا الروح لكان القالب خُشُبًا مسندة، ولولا القالب لما كان روح، فكل واحد فاعل وعامل من وجه فيكون الخطاب والثواب والعقاب لهما جميعا، فافهم واعلم.

الباب الرابع

في مناظرة إبليس - لعنه الله

في الخبر أنه جاء إبليس إلى النبي ﷺ، وهو شيخ أعور كوسج، ليس في وجهه غير تسع شعرات، مشقوق طولا بخلاف الآدمي، وله نابان خارجان، فقال النبي ﷺ: «من أبغض الناس إليك»؟ قال: أنت يا محمد، قال: «ثم من؟» قال: شاب تقي، قال: «ثم من؟» قال: عالم ورع قال: «ثم من؟» قال: سلطان عادل، والمقيم على الطهارة قال: «ما تقول في أبي بكر؟» قال: لم يطعني في الجاهلية بكذبة فكيف في الإسلام، قال: «فمن ضيفك من أمتي؟» قال: مبغض أبي بكر وعمر، قال: «فمن خازنك؟» قال: مانع الزكاة، قال: «فمن خليلك؟» قال: آكل الربا، قال: «فمن جليسك؟» قال: تارك الصلاة، قال: «فمن ضجيعك؟» قال:السكران والسارق، قال: فمن صهرك؟ قال: الزاني قال: «فمن رسولك؟» قال: الساحر. قال: «فمن قرة عينك؟» قال: الذي يحلف بالطلاق، قال: «فما يكسر ظهرك»؟ قال: صهيل الفرس في سبيل الله عز وجل قال: «فما يذيب جسمك؟» قال: توبة التائب، قال: «فما يخزى وجهك؟» قال: صدقة السر قال: «فما يطمس عينك؟» قال: صلاة السَّحَر، قال: فأي الناس أشقى عندك؟ قال: الأسخياء، والقدرية إخواني، والأكراد والأعجام يعملون ما أحب من غير تعب، والعلماء والفقهاء يغلبونا مرة ونغلبهم أخرى، وإني نصحت نوحا فأمره الله تعالى أن يعمل

بنصيحتي فقلت له: إياك والعجلة فإن قابيل عجل قتل هابيل، فأصبح من النادمين، وإياك والعجب فإني أول من أعجب بنفسه، وإياك والحسد، فإني أول من حسد، وإياك والكذب فإني أول من حلف بالله كاذبا، ثم قال: والذي بعثك بالحق إني ألعب بثلثي أمتك كما تلعب الصبيان بالأُكْرَة[١]، ثم قال: «ما حبائلك؟» قال: النساء، قال: «وأين بيتك؟» قال: الحمامات. قال: «وأين مسكنك؟» قال:الأسواق قال: «وما قرآنك؟» قال: الشعر والهجاء، قال: «وما غناؤك؟» قال: الأوتار والعود والطنبور، قال: «ومن رسولك؟» قال: الكهان والمنجمون. قال: ومن أمتك؟ قال: الشياطين، ثم قال رسول الله ﷺ: هل لك أن تتوب يا أبا مُرّة وأضمن لك الجنة؟ قال: لو أراد مني التوبة لتبت، ولكن قضاؤه غلب توبتي.

الباب الخامس

في مناظرة أهل القبور مع أهل القصور

واعلموا أنهم مناظرون أهل القصور بلسان الحال، ولسان الحال أعدل من لسان المقال، فيقولون: يا أهل القصور لا تنسوا أهل القبور، وارحموا ضعفنا ومسكنتنا، يا معشر الإخوان ارحمونا يرحمكم الله، فقد أكلنا التراب، وقد سالت العيون وتفرقت الخدود وتمزقت القدود، مساكين أهل القبور، عن يمينهم التراب، وعن يسارهم التراب، ومن خلفهم التراب، ومن أمامهم التراب، كنا أهل القصور فصرنا أهل القبور، كنا أهل النعمة فصرنا أهل الوحشة والمحنة، قد سالت العيون وصدئت الجفون، وانقطعت الأوصال، وبطلت الآمال. صار الضحك بكاء والصحة داء، والبقاء فناء، والشهوة حسرات، والتبعات زفرات، فما بيدنا إلا البكاء والحسرات، نفدت الأعمار وبقيت الأوزار، هيهات هيهات ولات حين مناص، حسرتنا أن ندرك وقتا نصلي فيه ركعتين ولا نقدر، وأنتم تقدرون فاغتنموا معشر

---

(١) الأُكْرَة: لُغَيَّةٌ في الكرة. "القاموس المحيط".

إخواننا نحن قوم محرومون، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] ، فاذكرونا بالخير، وواسونا بالصدقة، فإنا مساكين، وأنتم أغنياء ميامين. مساكين أهل القبور، ما أشد بلاءهم وأعظم حسراتهم، لنا الويل الطويل والحسرة والزفير، وأنتم تفعلون ما تشتهون، ونحن كما قال الله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾، يا معشر الأصحاب الغياث من التراب، وإن نمنا فعلى التراب، وإن استيقظنا فعلى التراب، وإن اضطجعنا فعلى التراب، على اليمين تراب، وعلى الشمال تراب، واحسرتاه من التراب، واوحدتاه من التراب، فكم من حسرة تحت التراب، يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها، لنا ما قدمنا وعلينا ما خلفنا، تبًا للجاه والمال، وتعسًا للدنيا وسوء الحال:

أنوح على نفسي وأبكي خطيئة ... تقود خطايا أثقلت مني الظهرا
فيا لذة كانت قليلا بقاؤها ... ويا حسرة دامت ولم تبق لي عذرا[1]

غيره:

إني أرى هذه الدنيا وزخرفها ... خضاب غانية أو حلم وسنان[2]

غيره:

وإن امرأ دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور[3]

غيره:

إني لأعلم واللبيب خبير ... أن الحياة وإن حرصت غرور[4]

---

(١) البيتان من بحر الطويل.
(٢) البيت من بحر البسيط.
(٣) البيت من بحر الطويل.
(٤) البيت من بحر البسيط.

غيره:

ومن صحب الدنيا على جور حكمها فأيامه محفوفة بالمصائب[١]

غيره:

عجبا عجبت لغفلة الإنسان قطع الحياة بِغِرَّةٍ وتوان
فكرت في الدنيا فكانت منزلا عندي كبعض منازل الركبان
أبغي الكثير على الكثير تضاعفا ولو اقتصرت على القليل كفاني
مجرى جميع الخلق فيها واحد وكثيرها وقليلها سِيَّان[٢]
للّه در الوارثين كأنني بأخصهم متبرم بمكاني

يا معشر الإخوان لا تنسونا من الدعاء والصدقة فكنا زمانا أحياء بمنزلتكم فصرنا أسراء تحت صدقتكم، أخبرونا كيف أيتامنا، أنشدكم اللّه كيف آباؤنا وأبناؤنا؟ كيف معارفنا وأصدقاؤنا؟ أين الآباء والإخوان؟ أين الأصدقاء والولدان؟:

أبكي فراقهم عيني وأرقها إن التفرق للأحباب بكاء[٣]

أخبرونا ما حال أزواجنا؟ وما عاقبة أصدقائنا؟ وما عاقبة أموالنا؟ ارحموا أيتامنا واعطفوا على أطفالنا، هيهات أن يرجع ما قد فات، يا أيها المغرور بزهرة الدنيا وسلامة الوقت هلا اعتبرت بتغير الأزمان وموت الإخوان، هذا واللّه غاية الظلم والعدوان، أصحاب القصور، ابكوا علينا، يا مالك ليقض علينا ربك، اشتقنا إلى أولادنا، وسئمنا طول مقامنا، وطال حسابنا وعذابنا، فما هذه العلل، وحَتَّامَ هذا[٤] المهل. يا أهل القصور الأعمال قد انقطعت والحسرات قد بقيت، والأموال قد فنيت والأزواج قد نكحت، والدور قد خربت، فيا أهل القصور الاعتبار الاعتبار،

---

(١) البيت من الطويل.
(٢) الأبيات من بحر الكامل.
(٣) البيت من البسيط.
(٤) أي: حتى متى، مثل: عَلامَ بمعنى على ما، وإلامَ بمعنى إلى متى.

ويا أهل الدور الاعتذار، الاعتذار، كل يوم يأتينا خطاب الجبار، كيف أنتم يا عبادي؟ كيف أنتم أيها المحبوسون؟ كيف أنتم يا أهل القبور والسجون؟ أزفت الآزفة، ليس لها من دون اللّه كاشفة.

دخل أمير المؤمنين ﷺ المقبرة: وقال: السلام عليكم إن دياركم قد سكنت، وإن أزواجكم قد نكحت، وأموالكم قد قسمت، هذا خبركم عندنا، فما خبرنا عندكم؟ فهتف به هاتف: عليكم السلام يا ابن أبي طالب، خبرنا: ما عملنا ربحنا، وما قدمنا وجدنا، وما خلفنا خسرنا، فأقبل علي على أصحابه، وقال: يا أصحابي ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

الباب السادس

في مناظرة الأغنياء مع الفقراء

ومناظرة الفقراء مع الأغنياء

وطالت مناظرتهم، فقال الفقراء: نحن أفضل منكم فإن محمدا ﷺ اختار الفقر على الغنى، وقال الأغنياء: بل نحن أفضل منكم، فإن الغني صفة الرب، واللّه الغني وأنتم الفقراء. قال الفقراء: نحن أفضل فإن حسابنا أقل، ومن قل شيئه قل حسابه، ومن كثر شيئه كثر حسابه، ومن طال حسابه طال عذابه، ومن نوقش الحساب عذب.

على قدر جرم الفيل تبنى قوائمه[1]

وقال الأغنياء: بل نحن أفضل لأن صدقاتنا وزكواتنا أكثر فيكون ثوابنا أكثر.

---

(١) هذا الشطر من بحر الطويل.

قال الفقراء: يموت أحدنا وحاجته في صدره ولم تقض، ويموت أحدكم وقد قضى منها وطرا؛ فكيف يستويان؟ يقال لكم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، قال الأغنياء: لا تتهيأ لكم شرائع الإسلام والإيمان فلا تحجون ولا تزكون، ولنا فضول أموال نحج ونزكي ونغزو، والحسنة بعشر أمثالها، وويل لمن غلبت آحاده عشراته، فنحن أفضل منكم، فقال الفقراء: إذا لم يجب علينا لا نطالب بقضائها وأدائها، وأما أنتم فتسألون عن كل ذرة وحبة حرفا حرفا، وتحاسبون ألفا ألفا، وقد قال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ عن الصراط حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه»، فنحن أفضل منكم.

فقال الأغنياء: نحن أفضل منكم، نشتري بالمال الأسرى ونتصدق على المساكين، ونسر المسلمين، والمال سبب لإدخال السرور على الأخ المؤمن، قال الفقراء: إن كنتم اكتسبتم بها الأجر والثواب وإدخال السرور، فإنا قد استفدنا بالفقر الراحة، والقناعة، وقلة الهم والغم، فإن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن.

قال الأغنياء: المال عدة الزمان، وعدة الإنسان، والغنى قرة العين به يتقرب العبد إلى طاعة اللّه تعالى، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، وأما الفقير فحيٌّ كميتٍ، لا عيش له ولا قرار، قال الفقراء: عرفتم شيئا وغابت عنكم أشياء، فإن المال سبب الحرص والحسد والكبر والعجب والفتنة والخصومة، وأهل الدنيا يتقاتلون عليها ويتناحرون، وهذه الآفات بمنزلة العقارب والحيات، فمن سلم من الحيات لدغته العقارب، وأما الفقراء فلا حرص ولا حسد ولا كبر ولا عجب، طرحوا وفرحوا.

قال الأغنياء: أخطأتم، شتان بين من قدر فترك، وبين من لا يقدر فيعجز،

فأنتم أصحاب العجز، ونحن أصحاب القدرة، فكيف يتفقان؟ إنا وجدنا الأموال واشترينا بها الجنان والثواب، وعجزتم عن ذلك، فانتظروا إلى هذا البيان والبرهان، قال الفقراء: المال روح الدنيا، والدنيا يبغضها الله، أما الفقر فهو غنى، والغنى يحبه الله، فإن الله موجود حقيقي، ومن سواه فموجود مجازي.

قال الأغنياء: تأملوا ما تقولون، فخلق المال من حكمة الله، وتخصيص المال من كرامة الله، قال الفقراء: إن فرعون كان من الأغنياء المسرفين، فهو عند الله من الكافرين، وكم من كافر مُنْعَم عليه، وكم من مؤمن مُقَتَّر عليه.

قال الأغنياء: هذا القياس ينتقض ولا يصح إلا بقياس، فإن سليمان كان من المرسلين، وقد ملك الدنيا سنين، وهذا داود كان له ثلاثة وثلاثون ألف حارس وكراسي من ذهب وفضة، وهذا عثمان وعبد الرحمن وغيرهما، قال الفقراء: القياس صحيح فإن المال كان لهم ولم يكونوا هم للأموال، فشتان بين من يكون للمال وبين من يملك المال.

قال الأغنياء: أهل الجنة أغنياء فرحون، وإنهم على أطيب عيش وأعدل حال وأهل النار فقراء مغمومون فنحن أفضل، قال الفقراء: أمسكوا فإن آلة المعصية ما أطغى وما أبغى، ولم يتبع الهوى إلا كل ذي مالٍ، وأما الفقراء فحسبهم الخمول والسكون، يطيعون ربهم شاءوا أم أبوا.

قال الأغنياء: غلطتم فإن التقوى مركوزة في طباع المرء أفتقر أو استغنى، قال الفقراء: أتسلمون لنا أن قلب المرء مع ماله، فالغني قط لا يحب الموت ويكره مفارقة الدنيا، وأما الفقير فلم ير خيرا إلا من ربه فيقدم عليه كالغائب. غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه. والفقير قلبه إلى ربه، فشتان بين من يميل إلى ربه وبين من يميل إلى الدنيا.

فلما أورد على الأغنياء هذه الحجة كادوا أن ينقطعوا فقالوا: لا نسلم هذا

هواجس وترهات دسائس، بل الغنى صفة الرب واللّه الغني، وقال رسول اللّه ﷺ: «من تخلق بخلق من أخلاق اللّه»، أو كما قال، ونحن أفضل، فصاحوا وتهارشوا وقالوا: أما غنى الرب فوصف ذاتي لا يتعدد ولا يتبدل، هو واجب الوجود غني بذاته لا بالمال والحال، وغناكم عرضي يزول في حال، فهذا قياس الملائكة بالحدادين.

فتحاكموا إلى قاضي العقل، فنظر واعتبر وطول وهول، ثم قال: قد تحيرت فيما بينكم إن قلت: الفقر أفضل فينادي الشرع «كاد الفقر أن يكون كفرا». وإن قلت: الغنى أفضل سمعت القرآن ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] فبعثوا رسولا إلى النبي ﷺ في مأثور الأخبار أن الفقراء شكوا إلى رسول اللّه ﷺ الأغنياء، وقالوا: فازوا بخيري الدنيا والآخرة يزكون ويتصدقون ويحجون ويغزون، ولهم فضول أموال ينفقونها، ولا نجد شيئا فحالنا أفضل أم حالهم؟ فرحب النبي ﷺ برسول الفقراء، وقال: «جئت من عند أكرم قوم على اللّه قل لهم إن من صبر على الفقر لأجل اللّه يكون له ثلاث خصال لا تكون لأحد من الأغنياء: إحداها: أن في الجنة قصورا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ولا يسكنها إلا الأنبياء والفقراء والشهداء، والثانية: أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، والثالثة: إذا قال الفقير مرة واحدة سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر، ويقول الغني مثل ذلك فلا يبلغ درجة الفقراء أبدا، فقالت الفقراء: رضينا».

فهذه مناظرة الفقراء مع الأغنياء، ولا شك ولا خفاء أن الفقراء أفضل من الأغنياء قطعا.

الباب السابع

في مناظرة العافية مع النعمة

قالت العافية: أنا أفضل فليس لي نظير في الدنيا كل أحد يحتاج إلي، وأنا لا أحتاج إلى أحد، وأنا التي قالوا في حقي «لو سألت من اللّه شيئا ما سألت سوى العافية»، وأنا التي قال رسول اللّه ﷺ: «سلوا اللّه العافية في الدنيا والآخرة»، قالت النعمة: كل من أصبح في عالم اللّه يطلبني، ويذكرني الناس في المحاريب والمنابر يقولون نسألك الغنى عن الناس.

قالت العافية: كل العالمين يسألون من اللّه العافية، فقالت النعمة: ولكنهم يسألون الغنى عن الناس. قالت العافية: إذا حضرت في موضع جاء الملك أو الرياسة، أجابت النعمة: إذا حضرت فقد جاء الفرح والسيادة، قالت العافية: لا تتهيأ أمور الخلق إلا معي، فقالت النعمة: أنا أكون معك، ثم قالت النعمة: واللّه الغني وأنتم الفقراء، ولا يقال واللّه صاحب العافية، فبهتت العافية ثم قالت: تضرب في حديد بارد؛ غنى اللّه صفة ذاته وهي قديمة وأنت محدثة، فالمشاركة في الأسماء لا يوجب المشاركة في المعاني. وخصيٌّ يفتخر بزُبٍّ[1] مولاه فمن أنت وهذه الدعوى؟! ثم قالت العافية: إن كان يقنعك التعلق بالأسماء فأنا الذي لا عيب لي ولا قدح في، واللّه بريء من العيوب.

فقالت النعمة: إن صحبتِ واحدا ألف سنة فما لم أحضر لا يطيب عيشكما، إن الجنة تطيب بحضوري وشهودي، فقالت العافية: إن الحياة لا تطيب إلا معي وبي، فأطنبا الكلام وأطالا المقام، فتحاكما إلى قاضي العقل الذي لا يحيف ففضى بينهما، وقال: أنتما أخوان، ورضيعا لبَان، وفرسا رِهَان، لا يستغني أحدكما عن الآخر، فيا

---

(١) الزُّب: بالضم، الذكر أو للإنسان خاصة. "القاموس المحيط".

صاحب العافية لك البشرى، ويا صاحب النعمة لا تقل بُشْرَى ولكن بُشْرِيان.

الباب الثامن

في مناظرة السخاء والبخل

وتناظرا يوما فقال البخل: أنا أفضل فإني سبب الغنى وأنت سبب الفقر، فصاحبي يمسكني فيصبح غنيا، وصاحبك ينفقك فيصبح فقيرا، فأنا قوة القلب، وأنا حارس العرض، وأنا قائد الغنى، وبشير العلا، وسائق الجيش، وأنا أورث المال والفرَج، وأحفظ البيوت والدنيا، وأغنى عن القرض وأذُب عن العرض، وأغنى عن الناس، والغنى عن الناس هو الغنيمة العظمى والدولة الكبرى، وأنا وأنا، واحتج عليه السخاء فقال: يا فُلْ ابن فل[1] يا ملوما بكل لسان، يا مذموما عند كل إنسان، أتتكلم في هذا الزمان؟ أما تستحي يا ابن الزانية والزاني، وأنا ممدوح بكل لسان، محمود عند كل إنسان؟ أنا سبب المحبة، أنا سبب الذكر الجميل، أنا ساتر العيوب، أنا الذي إذا عثرتُ أخذ بيدي ربي، أنا الذي يشار إليّ بالأصابع، أنا الذي يحبني كل أحد، أنا أنفع في الدنيا والآخرة، أنا الذي وجودي للمنفعة وأنت الذي وجودك للمضرة، واللّه جواد كريم، وإبليس شحيح بخيل، وكل سخي في الجنة وكل بخيل في النار، وأنا شجرة في الجنة وأنت شجرة في النار، وأنا قريب من اللّه وأنت بعيد من اللّه قريب إلى النار، وأنا يحبني كل أحد وأنت يبغضك كل أحد، وأنا أكون مع المؤمنين وأنت تصبح مع الكافرين، ولي منشور توقيعه: هذا دين أرتضيه لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء، ولك منشور توقيعه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وأنا مع الأنبياء، وكل نبي وولي سخي، وأنت مع اليهود والنصارى.

---

(١) أي: فلان، يقال: فلان أو فُلْ في لغة العرب.

فلما حاجّه بهذه الدلائل فكأنه ألقمه الحجر، فهرب البخل إلى ديـــار الكفـــر خجلا، وجلا نادما سادما منقطعا، فأمر الشرع حتى ينادي: ألا فاســـمعوا وعـــوا، خلق اللّه الإيمان وحفه بالسخاء، وخلق الكفر وحفه بالبخل، والبخل دهليز الكفر، كما أن الرفض دهليز الإلحاد، والطعن في الصحابة قاعدة الزندقة، ومسألة قتـــل الحسين شجرة الفتنة، وكل سخي فيه شعب وخصال من الإيمان، وكل بخيل فيـــه خصلة من الكفر، فإن قلت حاتم كان سخيا وكان من الكافرين، فأقول: حـــاتم قـــد نفعه السخاء، فورب السماء قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إن اللّه تعالى أمر أن يبنى بيت في النار من الطين لأجل أبيك، ظاهره عذاب وباطنة راحة جزاء علـــى سخاوته»، فالقاعدة صحيحة فافهم ذلك.

الباب التاسع:في مناظرة الدولة مع العقل

اعلم أن الدولة سماوية والعقل رباني، ولا حظ للعقل بدون الدولة، والدولة قد تصحب من لا عقل له، فإذا أقبلت الدولة أعطته محاسن غيـــره، وإذا أدبـــرت الدولة سلبته محاسن نفسه، فمن أقبلت عليه الدولة يصير خطأه صوابا، وكذبـــه يعد صدقا، ويجتني من الشجرة اليابسة ثمرا، وتبيض الدجاجة على رأس الوتـــد، فإذا أدبرت فقد جاءت المحن والفاقة بحيث لا طاقة له. في الأثـــر: «لمـــا نـــزل الإيمان من السماء استقبلته جميع الطاعات، فيقول كُلٌّ: انزل في بيتي فقـــال: أنا أعرف بيتي، فنزل في دار السخاء، وكل سخي صاحب إيمان أو فيه خصلة منه، ولما نزل الكفر استقبلته جميع المعاصي، فقال كُلٌّ: انزل بنا، فقال: أنـــا أعرف بمكاني منكم، ثم نزل في بيت البخلاء فلهذا قيل: البخل أخـــو الكفـــر». وتناظر العقل والدولة، فقال العقل: معي الخطاب وقالت الدولة: العيش معي وفـــي ناصيتي الجد والبَخْت، فقال العقل: بني الإسلام على أساسي، فقالت الدولة: بقـــاء الدين والدنيا في ناصيتي، فقال العقل: وقع على منشوري: بك أخاطب وبـــك

آمر، فقالت الدولة: وأعطاني تشريفا بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فقال العقل: أنا حجة الله، فقالت الدولة: أنا عطاء الله، فقال العقل: أنا أصحب الأنبياء، فقالت الدولة: ولا أخلو عن صحبتهم، قال العقل: فمن عدمني فمثل البهيمة، فقالت الدولة: من عدمني فهو حي كميت، فقال العقل: لقد ذكرني الله في القرآن بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام: ١٤٩] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أي: عقل، فقالت الدولة: اسمي في القرآن ﴿دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[يوسف: ٧٦]، فقال العقل: الدولة اتفاقات حسنة، فقالت الدولة: هذا من كلام الفلاسفة، أنا عطية الله وهدية الله، قالت الدولة للعقل: أنت صاحب الحرمان؛ لأن عقل الرجل محسوب من جملة رزقه، وأنا صاحب النعمة والكرامة، يا عقل أنت صاحب الهموم والأحزان، فإنه ما رئيَ عاقل مسرورا، فقال: يا دولة عرفت شيئا وغابت عنك أشياء، لا تعيرني بإمارة خمسة أيام، فالدنيا لعب ولهو، والولاية وراءها العزل، فقالت الدولة: أنا أجعل الخسيس شريفا والفقير غنيا، وإذا حضرت وكشفت البرقع فملوك العالم يتبعوني ويعطلون التخوت والسرر، فقال العقل: أنتِ تجالسين الكفار فإن القرين بالقرين يقتدي. فقالت الدولة: أتشركني في العقل وتفردني بالملائمة، فقال عقل الملوك: صحبت أياما مع فرعون فأخرت عنه الصداع والعذاب أربعمائة سنة، وصحبت أيام حاتم الطائي فبنيت له بيتا في النار بإطنه الرحمة، وأنا القوال الفعال، وأنا لا أخطئ، وما ضاع عُرْفٌ بين الله والناس، فطال بينهما القيل والقال؛ فتحاكما إلى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: وحق الله لأفصلنَّ بينكما بحكم الله لا يحسن أحدكما إلا مع الآخر رب هب لي ملكا، فإن العقل لا يطيب إلا مع الدولة، فمثالكما مثال الروح والنفس، لا يحسن أحدهما إلا مع الآخر، يا عقل إذا لم تكن مع الرجل فآخرته خراب، ويا دولة إن لم تكوني مع

الرجل فدنياه مكدرة، ومن كل شيء خلقنا زوجين، إن ازدواجكمـــا لحـــسن، وإن اجتماعكما لغاية النظام والتمام والفرد هو اللّه، فلم ينطاعا له وتطاولا وتناغصا، فحلفت الدولة أنها لا تسكن الأرض، ولا تحصل بكـــسب الآدمـــي، فـــذهبت إلـــى السماء، فالدولة سماوية، والعقل نور رباني، فهذه مناظرتهما؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.